الأَديبْ و المُفَكِّرْ الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاوَنْدْ

التربية الأخلاقية

التربية الأخلاقية

....

إذا كانت معطيات الفن والفكر جزءاً من بنية الحضارة البشرية.. فلا تتكامل الحضارة ولا تتحقق مثُلها إلا بالقيم التي تعبر عنها هذه المعطيات، كان الثابت أنّ الجندية بكل ما ترمز إليه من النظام والطاعة ومواهب القيادة هي أيضاً جزء هام من أجزاء البنية الحضارية في تاريخ البشر.

والجندية لا تصبح واقعاً تتصل أسبابه بمطالب الأوطان ورغبات الشعوب ما تكن تعبيراً صادقاً عن القيم الخلقية الرفيعة ولو أنّنا أردنا أن نضع تعريفاً جامعاً مانعاً لخصائص الجندية الأساسية لما وجدنا خيراً من أن نقول: "إنّ الجندية هي التجسيد الأمثل للأخلاق التي هي ضمانة الشعوب الكبرى والشرط الجوهري لاستمرار وحدتها وبقائها في مستقبل الأيام"..

والأخلاق هي نفسها التي قال فيها أمير الشعراء أحمد شوقي رحمه الله:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

الجندية والسياسة التربوية:

والجدير بالذكر أنّ الجندية حين تكون تجسيداً للقيم الخلقية فإنّ من الطبيعي جداً أن تكون في الوقت نفسه جزءاً أساسياً للسياسة التربوية للبلاد.

لقد أثبتت تجارب الأمم أنّ الحفاظ على سلامة الأوطان وصيانة تراثاتها التاريخية مشروطان بقوة الخلق وصدق اليقين وفي مقدمة المعاني التي ترمز إلى اليقين الصادق والخلق القوي يأتي المعنى الذي تستوعبه الجندية وتحتويه.

ولما كان المقصود من السياسة التربوية هو بناء الأجيال الطالعة وإعدادها بحيث تكون على أهبة الحياد عن الوطن أمام الأخطار الداهمة وتوفير أسباب التقدم وتدعيم العلاقات بين المواطنين وتيسير أسباب المعرفة لإلحاق الوطن بركب حضارة المستقبل فإنّ نظام الجندية وصفاتها الخلقية تصبح جزءاً لا يتجزأ من السياسة التربوية التي تنصرف إلى تحديدها عقول النخبة من المربيين وتضعها القيادات الوطنية العليا في مقدمة همومه الوطنية:

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا: info@RamadanLawand.com

من أجل ذلك خطط المسؤولون سياسة التربية العسكرية وأعدوا لها كل ما تحتاج إليه من أسباب التوعية الفنية والعلمية والخلقية.

الجندية وشواهد الحضارة:

فإذا كنا اليوم متفقين على أنّ الجندية هي من عصرنا كما كانت من كل عصر سابق جزءاً أساسياً من البنية الحضارية التي يتميز بها الإنسان فإنّ من الطبيعي أن يستعين الإنسان بالجندية في توفير الأمن والرزق والتقدم وبتعبير آخر في توفير الشروط المطلوبة لبناء المجتمع القوي.

وإذاً.. فالجندية شاهد من شواهد الطريق إلى المستقبل، في أخلاق رجالها وصفاتهم وخصائصهم وميزاتهم تتحدد المعالم النفسية والتقنية والفكرية كما تتحدد الإنجازات التكنولوجية لحضارة المجتمع.

إنّ في وسع المؤرخ أن يتعرف إلى حظ الأمة من مكاسب العلم و النظام والتشريع والوعي الوطني من خلال واقع الجندية عندها أي أنّ الجندية شاهد يعين إتجاه الطريق ويعين المسيرة الوطنية للأجيال الطالعة.

ولو أردنا في أن نقارن بين العصور ابتداء من الحضارات القديمة حتى يومنا هذا في ضوء أخلاق الجندية وتقنياتها المختلفة وسير رجالها فقد لاستطعنا أن نحقق صورة غنية للتحولات الكبيرة التي ظهرت في فنون المعرفة والقيم الخلقية والفنية بالإضافة إلى إنجازات التنظيم والالتزامات الواعية المتبادلة بين قاعدة الهرم الوطني وقمته.. كل شيء في حياة الجندية يشير بوضوح على التحولات الحضارية المتحققة في عصره.. إنّ الجندية الصالحة هي التي تعيش مع العصر في أحدث منجزاته التقنية والفنية، بحيث يبدو الجندي المعاصر منها أشبه بالتقني الذي يحسن التعامل مع الأجهزة القتالية الدقيقة الصنع.

وطبيعي أننا نحن هنا لن نتحدث عن الجوانب الفنية في عالم الجندي ولكننا ألمحنا إلى هذه الظاهرة لنميز بينها وبين ظاهرة أخرى ثابتة لم تسجل في محتواها أيّ تحول أساسي على امتداد العصور والقرون.

الظاهرة الثانية:

هذه الظاهرة الثابتة هي الظاهرة الخلقية التي تقوم من الحضارة البشرية، بما فيها الجندية بالذات مقام الطاقة من الآلة، أم مقام الأساس الراسخ من البناء، أو مقام الجذور من الشجرة الباسقة المثمرة.

وليس أدل على أهمية الظاهرة الخلقية من أنّ مصير الحروب كانت ولا تزال حصيلة القوة المعنوية والدوافع النفسية العميقة التي يتحرك الجندي من خلالها في كل من مرحلة السلام أو الحرب فالجندي ينتظم في صفوف القوات المسلحة لوطنه ويعمل جاهداً على إتقان فنون القتال، وتنمية روح النظام والطاعة في نفسه، وتغذية مواهبه المختلفة، لأنّه يؤمن بأنّ الجندية تعبر عن جانب هام من جوانب ملكته الخلقية.

إنّه لا يقاتل طمعاً في الحصول على المال وهو لا يتعرض للخيار طمعاً في الحصول على رتبة أرفع في صفوف الجيش فقط، بل يقاتل أيضاً وبصورة خاصة لأنّ القتال جزء من عقيدته وتعبير عن إرادة الحفاظ على القيم النبيلة في نفسه ورغبة منه في تحقيق عالم أفضل يشيع فيه السلام وتطمئن منه النفوس إلى المستقبل.

****

والواقع أنّ هذه الظاهرة ليست من نتاج عصر معين بل هي نتاج الإنسان في كل عصر منذ تكونت له رؤية ثقافية معينة تستوعب صورة أنبل وأكمل لحياته الخاصة والعامة.

ولما كنا نحن أبناء الشعب العربي في الكويت قد امتدت جذورنا الحضارية عبر عشرات القرون وورثنا عن الآباء والأجداد تراثاً ثقافياً غنياً بعقائد ذات قيم رفيعة وتقاليد وعادات اشتركت في صنع تجارب عدد من القرون، فإنّ من البديهي جداً أن تكون الخلفية الحضارية لحياتنا العسكرية موصولة بهذه العادات والتقاليد وبذلك التراث الغني بالعقائد ذات القيم الرفيعة.

أخلاقنا ودعوة السماء:

إنّ أمانة البحث والدراسة تصر علينا الاعتراف بأنّ هذه الظاهرة الثقافية الثابتة التي تبلورت بها أخلاقنا تعود إلى المرحلة التاريخية التي ظهرت فيها دعوة السماء على لسان أبي الأنبياء إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليهم، بل تعود إلى عصور قبل عصره بحيث تبدو لنا على صورة المبرات التي رافق النشاط الروحي والمادي عند البشر منذ فجر التاريخ.

يؤكد هذا الرأي ويثبته قوله عز وجل في محكم تنزيله: "شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ". وإذاً فإنّ في هذه الآية الكريمة ما يؤكد أنّ رسالة الإسلام لم تخرج إلى دنيا الناس عند بداية القرن السابع الميلادي من الفراغ بل هي عملية إحياء لتراث الرسالات السماوية السابقة ودعوة لتصبح المعاني والقيم الدينية وتنقيتها من التحريفات التي دخلت عليها على امتداد العصور السابقة وها نحن أولاء نورد فيما يلي الشواهد التي تؤكد ثبات رسالة السماء واستمرار تعاليمها الجوهرية رغم تقلبات الأيام وتعاقب الأحقاب والدهور:

1) دعوة الحق في كل الرسالات :

"مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ" (آل عمران:4)

2) ابراهيم الخليل هو سمّانا المسلمين من قبل :

"وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ" (الحج:78)

3) محمد قدوة لكل مسلم :

"لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا" (الأحزاب:21)

****

هكذا تتكامل الصورة الثقافية لدينا وتبدو لنا بكامل أبعادها أنها الحل الباقي الثابت الذي لا يتغير جاء به أوائل الرسل وجدّد الدعوة إليه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وكان عليه السلام ولا يزال في سلوكه وخلقه القدوة الحسنة لكل مسلم والصورة النموذجية التي تتحقق فيها شخصية المسلم الكامل.

وحين نواجه الظاهرة الخلقية الموصولة بحياة الجندي الذي انضم إلى القوات الوطنية المسلحة، نسأل أنفسنا فنقول:

ما هي الجوانب التفصيلية لهذه الظاهرة الخلقية التي تجعل من جنديّنا نموذجاً كاملاً للمؤمن المسلم المجاهد في سبيل الله؟

كما تجعل منها الحصيلة الضرورية للاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم؟

خلق القرآن

جاء في الأثر أنّ محمداً صلى الله عليه وسلم كان خلقه القرآن ومن ثم هنا جاء قوله عز وجل في محكم تنزيله متوجهاً إلى نبيه (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ..(

هذه الكلمات الأربع شهادة واضحة من السماء على أنّ خلق محمد عليه السلام هو خلق القرآن ولولا أنه كذلك لما شهدت السماء على أنه ذو خلق عظيم.

ولما كان خلق القرآن متعدد الجوانب فني المحتوى فإنّ من الطبيعي أن نختار الجانب الذي يتصل بحياة الجندي وخصائصه النفسية والذي يشكل مجموعة الضوابط والدوافع التي تتعلق بها الطاقة القتالية عند الجندي. إلا أنّ الفرق بين الإنسان والحيوان أنّ الأول منهما يتمتع بحرية الاختيار ويحس في أعماق نفسه بقدرته على إلتماس الكمال في الارتباط بالقيم الجميلة الخيرة والتوجه إلى المثل الأعلى، ولما كان الله عز وجل في ذاته الأزلية الأبدية هو هذا المثل الأعلى وهو في الوقت نفسه الينبوع الحقيقي للقيم الخيرة الجميلة بفضل الرسالات السماوية التي حملها الرسل والأنبياء إلى الناس كافة، فإنّ من الطبيعي جداً أن تكون عقيدة الوحدانية هي منطلق الإيمان عند الذين ينعمون بنعمة الهداية.

ونحن لا نسوق هذا القول من عند أنفسنا بل نجده مكتوباً في القرآن الذي يعلمنا أنّ عقيدة الوحدانية هي في جوهر التعاليم التي حملها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم إلى الناس كافة.

فهذا نوح عليه السلام يقول لقومه: "يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ".. (الأعراف:59)

وهذا إبراهيم الخليل يردّد "قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (الأنعام:162)

ويتكرر هذا المعنى على لسان موسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ويعلن بأوضح عبارة بأنّ عقيدة الوحدانية هي وحدها التي حملت من السماء إلى الأرض وهي وحدها الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وإذا كانت الحضارات البشرية قد تفاوتت في تحقيق رسالات الحق والخير والعدل فإنّ هذا التفاوت يعود إلى نصيب كل منها من عقيدة الوحدانية.

وإذا كنا نحن أبناء هذه الأمة التي يسعدنا أن ننتمي إليها قد ورثنا أفضل تراث من تراثات الثقافة البشرية ووكلت إلينا رسالة الدعوة إلى الله وكنا بها شهداء على الناس، فلأننا جعلنا من عقيدة الوحدانية نوراً نستضيء به في كل موقف من المواقف وينبوعاً نستمد منه مكارم الأخلاق ووسيلة كريمة نتعامل بها مع شعوب الدنيا كلها.

إنّ الجندي المؤمن بالوحدانية والذي يصدر عنها في قوله وعمله صادقاً غير كاذب هو وحده القادر على استيعاب الصفات الخلقية التي تجعل منه رجل السلام لا الاستسلام وتوفر له أسباب العزة والكرامة وتميز سلوكه بصفات الاستقامة والطهر والنقاء.

إنّ الجندي الحقيقي هو الذي لا يقاتل عن حمية كحميّة الجاهلية.. ولا يطلق النار غضباً لنفسه ولكنه الذي يقاتل في سبيل الله ويطلق النار غضباً لله عز وجل وبذلك يكون قد حقق الخطوة الأولى من الخطوات التي تقتضيها خطة الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم.

إنّ الإيمان الحقيقي الذي يمتلئ به قلب المؤمن هو ذلك الذي ينضبط به أخلاق صاحبه وتصدر عن أقواله وأعماله به يهيمن المؤمن على نوازع نفسه وبفضله يضع كل شيء في موضعه الذي دل الله إليه.

وهنا نعود إلى التساؤل مرة أخرى ما هي الصفات الأساسية التي يجب على الجندي المؤمن أن يتصف بها حين يتعامل مع نفسه ومع الناس كافة.

في وسعنا أن نجد الجواب عن هذا التساؤل في آيات من كتاب الله عز وجل.

الالتزام: الالتزام بالسلوك الفاضل يترتب على الإيمان فالجندي حين يؤمن إيماناً صادقاً نابعاً من أعماق قلبه يجد نفسه ملزماً بنوع معين من السلوك وهو بالقدر الذي يتعلق فيه بعقيدته يكون التزامه الصادق بالسلوك النابع من هذه العقيدة.

ومن هنا كان الفصل بين الإيمان والسلوك في الحياة الدنيا عملية بالغة الخطورة ومحاولة لتفريغ الإيمان من محتواه ذلك لأنّ الإيمان ليس عقيدة جامدة موقوفة على الاعتراف بوحدانية الله عز وجل وحسب بل هي قوة دافعة تتحرك في دفئها ملكات المؤمن وينطلق بها عقله وعاطفته وإرادته.

إنّ الثابت عند علماء الأخلاق أنّ القاعدة الأساسية التي يدور حولها كل النظام الأخلاقي هو الإحساس القوي بالالتزام نحو الضمير الذي حظى الإنسان به أو نحو الله الذي تشدنا عقيدة الوحدانية إليه أو نحو المجتمع الذي نشاركه في حياته وتبادله في المصالح ونربط مصيرنا بمصيره.

القرآن الذي يجعل من ارتباطنا بالوحدانية مصدراً أساسياً ووحيداً للالتزام لا نحو الله وحسب بل نحو أنفسنا ونحو الناس أجمعين. وإذاً فإنّ الإيمان في كتاب الله هو مصدر الالتزام عند المؤمن ويتفرع عنه الالتزام نحو النفس والمجتمع الذي نعيش فيه بل والمجتمعات البشرية كافة.

المسؤولية: وإذا كان الالتزام قاعدة أساسية من قواعد الأخلاق عند المؤمن فلأنه مدخل إلى المسؤولية التي تترتب عليه فالإنسان مسؤول عما يلتزم به لأنه يملك القدرة على أن يختار ويتمتع بحرية أن يفعل أو لا يفعل. فالإنسان الفاعل يواجه عند كل موقف إمكانات متعددة يستطيع أن يختار من بينها واحدة توافق هواه بغض النظر عن إحترامه للقاعدة الخلقية أو عدم احترامه لها.

إنّ الامكان هو شيء في صميم العقل والإرادة عن الإنسان بينما الضرورة شيء في صميم السلوك الحيواني أو في أجزاء الطبيعة والكون.

وقد عرض القرآن لظاهرة الإمكانات التي يتميز بها الإنسان من دون سائر الحيوان والجماد في قوله عز وجل الآية (72) من سورة الأحزاب "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسانۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا.."

من الواضح إذا أنّ الآية القرآنية تعلن عن وجود قدرة خلقية عند الإنسان وبها يختار أحد النجدين اللذين هداه الله إليهما وهو مسؤول عن اختياره.

ولا شك أنّ الله عز وجل حين كرم بني آدم بخاصة قد أراد أن يقول لنا: إنّ هذا التكريم هو بسبب قدرة الإنسان على الالتزام الواعي بعقيدة الوحدانية وبالمسؤولية المترتبة عليها، بل إنّ تكريم الله عز وجل للإنسان قد

بلغ درجة أن يأمر سبحانه وتعالى ملائكته بالسجود لآدم أبي البشر رمزاً للمكانة العالية التي يرتفع الإنسان إليها بفضل التزامه الخلقي ومسؤوليته عن الاختيارات الصادرة عنه.

وها نحن أولاء نجد في الآيتين 14- 15 من سورة الإسراء ما يؤكد هذه المسؤولية أمام الله عز وجل في قوله (وَكُلَّ إنسان أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً* اقرأ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)..

أَوَليس في هذا البيان القرآني ما يؤكد كامل مسؤولية الإنسان عن أعماله التي يختارها في حياته الدنيوية أمام الله يوم القيامة؟

والمسؤولية تتفاوت بتفاوت الملكات التي يملكها الإنسان المسؤول واختلاف الشروط التي تتصل به من السنّ والصحة والظروف المادية المحيطة بصاحب المسؤولية.

ولما كانت الجندية في محتواها وأغراضها تعني أن يضع الجندي عقله وقلبه وحياته في خدمة ما يلتزم له من الدفاع عن كرامة دينه وحرية وطنه وسلامة مجتمعه وحقه في التمتع بالأمن والعمل المشروع فإنّ من الطبيعي أن تكون المسؤولية أمام الله وبالتالي أمام نفسه ومجتمعه أكبر من مسؤولية سواه مع العلم أنّ المؤمنين يتساوون من حيث المبدأ في الالتزام وتحمل المسؤولية ثم يتفاوتون فيها تبعاً للشروط التي تتوفر لكل منهم.

الجزاء: حين تتوفر قاعدة الإلتزام والمسؤولية ويصبح صاحبها واعياً بما يترتب عليها من النتائج فإنّ من الضروري جداً أن يجري تقويم الموقف الذي يختاره الإنسان الملتزم المسؤول والتقويم يعني موازاة صاحب هذا الموقف.

إنّ الجزاء هو رد فعل الشارع الذي شرع لإنسان ونهج له طريقه وهو نفسه الذي يحاسب الملتزم المسؤول عما صدر عنه من خير أو شر فيثيبه إن أحسن وأصاب ويعاقبه إن أساء وأخطأ.

والجزاءات متعددة فهناك الجزاء الخلقي الذي يشعر معه بالراحة والرضا والطمأنينة حين يحسن عمله كما يشعر بالتعب وعدم الرضا والقلق حين يسيء فيه.

ولنا في بعض ما جاء في كتاب الله ما يكشف عن ظاهرة الجزاء الخلقي ومنه الإشارة إلى الطمأنينة التي يشعر بها المسلم حين يعبد الله مخلصاً له الدين كما في قوله عز وجل: (أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ) ومنه الإشارة إلى ظاهرة الندم التي تعقبها التوبة كما في قوله عز وجل: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) وذكر الله هنا يرافقه الإحساس بالندم والتصميم على التوبة والتطهر ثم يأتي الجزاء القانوني الذي يمثل الجانب العقابي والمقصود به في الأساس العقوبة بالمعنى الواسع للكلمة الذي يحتوى على الإجراءات التأديبية والإجراءات العقابية بالمعنى الصحيح على السواء.

والجدير بالذكر أنّ المجتمع الإسلامي، كسائر الأمم المتحضرة لم يحرص على منع الجوائز المادية لأولئك الذين يؤدون واجباتهم آداء كاملاً فهؤلاء سوف يقنعون أولاً بنوع من الجزاء السلبي الذي يمثل في استظلالهم حماية القانون ليأمنوا على حياتهم وأبدانهم وأموالهم وأعراضهم من أي مساس بها، ثم هم بعد ذلك يقنصون بجزاء شامل من الرأي العام الذي سوف يعاملهم بما يستحقون من الرعاية والتقدير والاطراء.

وهذا يعني أنّ المكافأة على العمل الطيب هي التي يعبر عنها المجتمع بالرضا والحماية لصاحبه في ظل القانون وأما الجزاء العقابي فهو الإجراء الإيجابي الذي يتصدى به القانون أو المجتمع لصاحب العمل السيء إما بتنفيذ الحدود على جرائم محددة أو بالتعزيز.

****

ثم يأتي بعد ذلك الجزاء الإلهي الذي لا يتحدد دون تدليل في أكثر ما جاء في القرآن من التعاليم والتوجيهات. فالقرآن لا يأمر إلا في حالات استثنائية لمجرد الأمر ولا ينهى لمجرد النهي بل يعلل أمره ونهيه بالعلل المتفقة معهما والتي تكشف عن الغرض العملي منهما وفيما يلي نماذج من أساليب التوجيه الخلقي في القرآن وما يترتب عليها من العقوبات الزاجرة عند الإساءة ومن المثوبة عند الإحسان.

الحرية في الدعوة إلى الله: "فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ" (آل عمران:20).

الدين موافق للفطرة: "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا" (الروم:30)

أتباع الهوى: "فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُواۚ" (النساء:135)

جمع المال والتكالب على الدنيا: "وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (20)" (الفجر)

مشية الكبر والخيلاء: " وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولً " (الإسراء:37)

تحريم قتل النفس إلا بالحق: "وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ" (الإسراء:33)..

****

هكذا يتبين لنا أنّ خلق القرآن هو الخلق الذي كان يتمثل في سلوك النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأنّ أقصى ما يطمح المؤمن إليه هو الاقتداء برسول الإسلام، ولا سبيل إلى ذلك إلا بعد أن يستوعب القواعد الأساسية للعملية الخلقية وهي: الالتزام والمسؤولية والجزاء.

****

ولا عجب في أن يكون الجندي الشامل في خدمة وطنه أجدر المواطنين بالإحساس العميق القوي بالقيم الخلقية التي جاء بها كتاب الله على صورة تتفق مع طبيعة الدين الذي آمنا به والتزمنا بأوامره ونواهيه وهي طبيعة يتحقق فيها التوازن الدقيق بين مطالب الدنيا وقيم الآخرة بين الجسد والروح.

ولما كانت الالتزامات الخلقية عند الجندي المؤمن ذات طابع خاص تفرضه روح الجندية وما تستلزمه من النظام والثقة بالنفس والقوة والإستعداد للتضحية والالتزام الدقيق بمفهومات الحرية المسؤولة ولما كان الجندي مواطناً ممتازاً بسبب المكانة التي يشغلها من المسؤوليات المترتبة عليه فإنّ من الطبيعي أن نسلط الضوء على الجوانب الخلقية التي تخصه في الواقع دون سوان وإن كانت من حيث المبدأ خاصة بكل مؤمن مشارك في الإيمان بالوحدانية.

عزة الجندي المؤمن

جاء في كتاب الله قوله عز وجل: "وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ" (المنافقون:8)

والعزة هنا لا تعني الكبرياء بل هي حصيلة لثقة المؤمن بالرسالة التي يحملها إعلان عن أنها مصدر القوة وينبوع السلامة، والوسيلة الوحيدة لتحقيق النصر على بواعث الضلالة والانحراف والفساد والخوف والفوضى، فالعزة بهذا المعنى ترتبط بالوعي، والعزة بهذا المعنى موصولة بالإحساس القوي بالمسؤولية، والعزة بهذا المعنى أيضاً يرافقها استعداد تام للتضحية والبذل، والعزة بهذا المعنى أخيراً ترمز إلى استعداد صاحبها للاستجابة لكل الالتزامات المادية والتنظيمية والسلوكية التي تقتضيها عقيدته والقيم التي يؤمن بها.

الكبرياء يعتبر تعبير عن الغرور وانعكاس لظاهرة مرضية خطيرة أنها نوع من الانفصام القائم بين رأي المتكبر في نفسه وبين ملكاته الواقعية وقدراته الحقيقية وبتعبير آخر نستطيع أن نقول: إنّ الكبرياء هي عملية تعويض يستعين بها الإنسان العاجز عن الارتفاع إلى مستوى القيم الخلقية الرفيعة وبالتالي عن الاستعانة بالإرادة الفعالة المبدعة.

الكبرياء توقف عجلة التاريخ، فإذا واجهت أول عقبة جدية انكشفت عن فراغ في محتواها الأدبي والقدرات الحقيقية لصاحبها، أما العزة بالمعنى القرآني فهي التي تمثل حركة التاريخ نحو المستقبل وتدفع به إلى الأمام إنّها تعبير عن التوازي والتوازن، بين رأي الإنسان في نفسه وبين قدراته على العطاء السخي.

لذلك حرصت الآية القرآنية الكريمة على اعتبار العزة وفقاً على الله الذي هو خالق كل شيء والمثل الأعلى لكل المخلوقات ثم على الرسول صلى الله عليه وسلم الذي هو القدوة الحسنة والنموذج الكامل لإنسان هذه الدنيا ثم على المؤمنين الذين يسيرون على هديه صلى الله عليه وسلم.

والجدير بالذكر أنّ العزة كقيمة دينية ليست ذات حجم محدد ثابت عند كل الناس، إنها تزيد وتنقص بزيادة الارتباط بهذه القيمة الدينية أو بنقصانها، ولما كانت وظيفة المواطن مشروطة بشعور معين من الاعتزاز، فقد وجب أن تكون وظيفة الدفاع عن حرية الوطن وسيادته وعن سلامة ما يرمز الوطن إليه من عقيدة وتراث ثقافي وعادات وتقاليد، هي في قمة الوظائف الاجتماعية، ولما كان الجندي العامل في القوات الوطنية المسلحة هو صاحب هذه الوظيفة فقد وجب أن تكون صفة العزة عنده على مستوى الوظيفة التي تقوم بها والمهمات الخطيرة التي توكل إليه.

فأنتم أيها الشباب ضمير هذه الأمة وأنتم بالتالي الدرع المنيعة التي تحتمي بها البلاد وأنتم أخيراً الفئة التي تمثل الرؤية الحضارية لأمة جادة في القيام بدورها الإعماري الواسع في موكب المستقبل.

من أجل ذلك نلفت نظركم أيها الأبناء إلى حقيقة أساسية هي أنكم أنتم بما تلتزمون له من السلوك والصفات العسكرية التي تستوعبها كلمات النظام، والتضحية والاستعداد الدائم، والتعبئة الشاملة أنّكم بهذا كله تمثلون الإنسان النموذجي الذي تهدف العملية التربوية إلى بنائه وتوفير أسباب الحياة والنماء له.

الإعداد والتعبئة

يقول الله عز وجل في محكم تنزيله: "وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ" (الأنفال:60)..

هنا مع هذه الآية الكريمة ننتقل إلى مرحلة تالية إنها المرحلة التي لا تبلغ عزة المؤمن بعض أهدافها ولا تحقق بعض معانيها إلا بواسطتها، أنّ عزة المؤمن المجند لخدمة وطنه ليست في إعلان موقف أدبي معين أو ترديد القول في عقيدة معينة وحسب، بل هي في تجسيد هذه العزة بالإمداد الممكن لأسباب القوة وقد عبر القرآن عن هذه الأسباب بالصورة المتعارف عليها في عصر النبوة إنها "رباط الخيل"..

ولا عجب في ذلك فإنّ رباط الخيل في عصر النبوة هو الذي كان يمثل ظاهرة التعبئة المادية للجيوش المقاتلة، أما في يومنا هذا فإنّ التعبئة العسكرية المادية لا تقف عند رباط الخيل وحسب، ذلك لأنّ أشياء هذه التعبئة قد أصبحت في الربع الأخير من القرن العشرين موصولة بالتعبئة الاقتصادية الشاملة والوعي الإداري فوق القاعدة الإنتاجية الوطنية العريضة.

إنّ فلسفة التعبئة اليوم موصولة برؤية خلقية تستوعب بدورها الاستراتيجية العامة للبنية القومية أنه لا تعبئة حقيقية في عصرنا هذا ما لم تكن ندوات المواطنين كلها وثروات البلاد كلها معدة بالطريقة التي تصبح معها عند مجابهة العدو في صميم المعركة المصيرية.

إنّ الحفاظ على موارد البلاد ابتداء من المياه وانتهاء بالأسلحة المتطورة وما بينهما من مراحل إنتاجية وثروات هو شرط أساسي للتعبئة الوطنية السليمة.

كما أنّ تنظيم العملية الإعلامية التي يقصد بها توعية المواطنين بأهمية الموارد وضرورة التعاون مع القيادات المسؤولة بحيث يصبح كل مواطن على وعي تام بأهمية كل دينار وكل جهد مبذول في تدعيم السياسة الدفاعية، إنّ هذا التنظيم الإعلامي هو شرط أساسي آخر للتعبئة الوطنية السليمة.

وكذلك أهمية التوعية الإعلامية بأهمية التراث الثقافي الذي انتقل إلى الجيل المعاصر ويرمز إلى روح الأمة المستمد عبر الأجيال والقرون الماضية والذي يعلن عن وحدة الصف وتضامن المواطنين في تدعيم هذه الوحدة بكل ما تستوعبه من قيم وعادات وتقاليد داخلة في مفهوم الإعلام التعبوي للأمة.

والواقع أنّ الحروب الحديثة ولا سيما الحرب العالمية الثانية قد كشفت عن الأهمية القصوى للتعبئة الشاملة التي أشرنا إليها والتي لخصتها الآية القرآنية الكريمة التي قدمنا بها هذه الفقرة بأسلوب العصر النبوي.. لقد كشفت هذه الحرب عن حاجة الدولة المحاربة إلى كل الموارد المادية والأدبية التي تملكها البلاد وتوظيفها كلها في الجهاز العسكري المقاتل.

ولما كنا نحن أبناء الكويت أمام أحداث مصيرية ناجية من الوجود الصهيوني من ناحية وأخطار التحولات الإنمائية الضخمة وأصدائها الدولية فإنّ من الطبيعي جداً أن يعتبر الطالب نفسه في حالة تعبئة مستمرة تدخل فيها وتتصل بها اتصالاً جوهرياً المسؤوليات التربوية التعليمية كاملة، بحيث أنّ الطالب يشعر بأنّ إتقانه بدراسته جزء من الحملة التعبوية الشاملة مثله مثل العامل في المصنع والإداري في مكتبه والجندي في معسكره وغيرهم وإنّ إتقان الدروس هو جزء من معركة البقاء التي يخوضها شعبنا أمام مسؤوليات الإعمار من ناحية والأخطار الخارجية من ناحية أخرى.

الدفاع لا الهجوم

يقول الله عز وجل في محكم تنزيله "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" (البقرة:190).

إذا كانت العزة موقوفة على الله ورسوله والمؤمنين، وإذا كانت التعبئة الوطنية الشاملة شرطين من شروط المواطنة الواعية والأخلاق العسكرية الصحيحة، فهذا لا يعني أن تؤثر القوة هو تبرير للقتال ذلك لأنّ القتال المشروع في كتاب الله هو القتال الدفاعي.

إنّ الجندي المسلم والذي يستعد لخوض المعركة دفاعاً عن نفسه وعن حقه في حرية الاعتقاد وفي الحوار المفتوح المستضيء بعقيدة الوحدانية، إذاً فهو يقاتل في حالة واحدة أي حين يعتدى عليه، فإذا وقع الاعتداء كان على

الجندي المسلم أن يقاتل المعتدي حيث يجده، حتى ولو كان هذا المعتدي عند المسجد الحرام، والعدوان كما يكون بالسلاح قد يكون بإثارة الفتنة لأنّ الفتنة كما يعلمنا الله عز وجل هي أشد من القتل.

والجدير بالذكر أنّ القتال الدفاعي في الإسلام مشروط بمصارحة العدو بالقتال، أي مشروط بالنظافة الخلقية.. يقول الله عز وجل في محكم تنزيله: "وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ" (الأنفال:58).. ومعنى "فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ" أي فاطرح لهم عهدهم حال كونك أنت وهم على حال مستوية في العلم بذلك، فأنذرهم بأنّك قطعت هذا العهد، ولا تأخذهم على غرة، فإنّ هذا عذر لا يليق بأرباب المروءة.. والمراد بهذا الإجراء أن يكون قتال الجندي المسلم:

1) نظيفاً من الناحية الخلقية حتى مع العدو.

2) أن يكون الإعلان عن قطع العهد فرصة أخيرة تطرح أمام العدو للعودة إلى السلام.

فإذا لم يرعَ العدو كانت الحرب التي يخوضها الجندي المسلم خالصة لوجه الله وخاضعة لحدود الله تقف حين يقف العدوان وتستمر باستمراره.

العـدل

هذا التوجيه القرآني مرتبط بالرؤية الخلقية الشاملة المقررة بجوهر العقيدة، وأهم ما في هذه الرؤية صفة العدل.. فإذا كان العدو يقاتل للاعتداء على حق الجندي المسلم في الحرية والسيادة وإذا كان العدو يقاتل لإثارة الفتنة دون أي تبرير سليم بطبيعة الحال، فهذا لا يبرر للجندي المسلم سياسة اللجوء إلى العدوان وخطة مقابلة الفتنة بالفتنة، ويؤكد هذا المعنى قوله عز وجل:"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" (المائدة:8).. والمقصود بقوله عز وجل: "وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا" هو أنه لا يجوز تحملكم عداوة العدو على مقابلته بالعدوان وتجاهل أخلاق العدل، ذلك لأنّ العدل قيمة خلقية تتأثر بعداوة عدو ولا صداقة صديق حتى ولو كان ذا قربى، وما يصدق على العلاقات الشخصية بين أفراد الوطن الواحد يجب أن يصدق على العلاقات الدولية العامة.

إنّ هذا المفهوم الرفيع النبيل من العدل هو الذي يجعل أخلاق القتال عند الجندي المسلم أعظم وأكرم ما عرفته البشرية حتى يومنا هذا في صوغ القانون الدولي، هذا القانون الذي لا يزال يشكو حتى اليوم من الثغرات

الفاضحة في تنظيم العلاقات بين الدول، وهو تنظيم يقوم في كثير من حالاته على شريعة الغاب والتكالب على ثروات الآخرين وتجاهل حقوقهم في الحرية والسيادة وتقرير المصير.

إنّ من حق أخلاق العدل التي نتحدث عنها في هذه الفقرة أن تعود بنا إلى مفهوم الحرية التامة التي نادى بها القرآن على مستوى العقيدة، والتي هي أرفع وأثبت ما جاء به الإسلام.. تبدو هذه الحقيقة في قوله عز وجل: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" (البقرة:256)..

الصورة النموذجية لأخلاق الجندي المسلم

في ضوء ما سبق يمكن أن نضع الخطوط الأساسية للصورة النموذجية لأخلاق الجندي المسلم خلاصتها ما يلي: "الجندي المسلم هو المواطن الملتزم لعقيدته والمسؤول عن تصرفاته في حدود التشريعات النابعة من هذه العقيدة، وهو في الوقت نفسه الذي يعلم علم اليقين بأنّ كل ما يصدر عنه مكتوب في كتاب أمين، وأنه سيحصد حصيلة ما يصدر عنه انتصاراً أو هزيمة في الدنيا وجنة أو نار في الآخرة.

وبذلك يكون الجندي المسلم عزيزاً بعزة الله ورسوله، وعلى تعبئة كاملة لإرهاب عدوّه وعدو الله ورسوله.. فإذا قاتل لا يقاتل عن عدوان بل يقاتل دفاعاً عن الله ورسوله وبالتالي عن حريته وسيادته وحقه في الحوار المفتوح المستضيء بكلمات الله التامة، فإذا وقع العدوان عليه وانتصر لدينه، فإنّ فقدان العدل عند عدوه لا يبرر لجوءه إلى الظلم لأنّ أخلاق القتال في الإسلام هي جزء من العملية التربوية الشاملة التي تستوعبها رسالة هذا الدين العظيم من أنَّ الجندي المسلم يجد صورته الحقيقية في الصفة التي وصف بها القرآن عباد الرحمن الذين يهيمنون على نزوات نفوسهم، فلا يقاتلون عن حمية ولا يندفعون غضباً لأنانيتهم أبداً.. يقول الله عز وجل في هذا المعنى في سورة الفرقان: "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأرض هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً (63) وَالَّذِينَ يِبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً (65) إِنَّهَا ساءت مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً (66) وَالَّذِينَ إذا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً (67)"..

خلاصـــة

في ضوء ما سبق تتضح أمامنا صورة تربوية رفيعة لشخصية المسلم وبصورة خاصة للجندي المسلم، إنها الصورة التي تبرز لنا هيمنة الرسالة الإسلامية هيمنة تامة على الإنسان، بحيث تضبط بها غرائزه وتحفظ بها فطرته السليمة فلا تتأثر بأي اتجاه تحريفي.

والجدير بالذكر أنّ الرؤية التربوية في الإسلام شديدة الثقة بالإنسان من حيث المبدأ، أنها لا تتعارف مع القوانين والسنن التي ارتضتها إرادة الله لعباده من الناس، والثقة الإلهية بالإنسان من ناحية ونزول الدعوة إلى الله على سورة الفطرة التي هي جزء من سنن الله في الأرض من ناحية أخرى، نجدهما في كتاب الله نفسه.

أما الثقة بالإنسان واعتباره جديراً بتقبل العقيدة واعتبارها شيئاً في طبيعة تكوينه، فنجدهما في قوله عز وجل: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ" (الأعراف:172).. فالله من فوق سماواته يخبرنا أنّ الإنسان كإنسان قد شهد بربوبية الله عز وجل من قبل أن يخرج إلى الدنيا، وهذا يعني أنّ عقيدة الوحدانية ليست غريبة على طبيعة الإنسان، بل هي جزء لا يتجزأ من روحه الخالصة العميقة.

وأما أنّ الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو على صورة الفطرة في كل ما حمله إلى الناس من التعاليم، فتجده في قوله عز وجل: "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" (الروم:30)..

ولما كانت الرؤية الخلقية جزءاً من التعاليم التي جاء بها الإسلام فإنّ من الطبيعي أن نعتبرها الثمرة الضرورية المتجاوبة مع الفطرة، كما أنّ عقيدة الوحدانية متجاوبة مع شهادة الإنسان بها قبل أن يخرج إلى الدنيا.

إنّ ظاهرة التيسير في الإسلام هي التعبير الواقعي عن سياسة العدل وإرادة الله في تحقيق التوافق بين أخلاق المسلم من ناحية و بين الفطرة وسابق الاستعداد لتقبل عقيدة الوحدانية من ناحية أخرى، كما وجهت الدعوة إليك أيها المسلم لكي تتخلّق بأخلاق القرآن فإنّما تدعى في الحقيقة للحفاظ على فطرته السليمة والالتزام لشهادتك المسبقة بربوبية الله عز وجل ووحدانيته، ولنذكر ونحن نقلب وجوهنا في سياسة الإسلام الخلقية قوله عز وجل في سورة المائدة: "قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (16) "..